القدوم المبارك

(فلم نَزَلْ نَتعرَّف من اللهِ الزيادةَ والخيرَ مُنذُ قُدومه عليْنا)

السيدة حليمة بنت أبَي ذؤيب
بادية بني سعد – عام ٥٧٣م

مهندس
الصافي جعفر الصافي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسم الكتاب : القدوم المبارك
المؤلف : م. الصافي جعفر الصافي
رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

انحناءة وإهداء

إلى كافة أفراد البشرية وهم يركضون لاهثين. يبحثون عن العدل والطمأنينة وسط عالم مذعور مُفزَّعٍ ويشتاقون إلى مشروع خلاصٍ من هجير لافح..

إليهم جميعاً أسوق هذه السلسلة – [بين يدي رسول الله].

وهي تُدَنْدِنُ حول رجال نادر نفيس..

هو سيد ولد آدم وخاتم رسل الله..

سيدي:

محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين

مدخل

الحديث عن سيد الأولين والآخرين حديث ثر.. يحلو ويلذ ويتجدد على مر الأزمان والدهور لأنه يحمل بذرة الخلود (ورفعنا لك ذكرك).

ومحبة المسلمين لسيد ولد آدم محبة استثنائية غير مسبوقة .. وكيف لا يحبونه والحق سبحانه وتعالى يخبر المسلمين بأنّ هذا الرسول (أولى المؤمنين بأنفسهم).. لقد فُطِر على ذلك .. أن يكون أولى بك وبشئونك منك.. إلى هذا الحد عكس القرآن محبة رسول الله للمسلمين، وهم لا يملكون أمام هذا الفيض من المشاعر المحمدية إلا أن يحاولوا مبادلته وداً بود وحباً بحب وهيهات:

جاءوك يارحمة الرحمن تملؤهم مشاعرٌ وأحاسيسٌ خفيَّاتُ

فأنت أولى بهم ياسيدي قسماً كذاك نصّت من التنزيل آياتُ

يبادولنك وُدَ الحر لو ملكوا ودون شاؤك أمادٌ بعيداتُ

ولذلك حظيت السيرة باهتمام كبير بين جمهور المسلمين.. كتبوا حولها نثراً وشعراً.. وهاموا بها، والسودانيون على وجه الخصوص عرفوا بمحبتهم الفائقة لرسول الله.. والكاتب لا يزال يذكر – وهو صبي يافع- مجالس عامرات لأهله في القرية وهم يتحلقون احتفاءً بالمولد النبوي الشريف.. يسردون سيرته في إيقاع جميل.. ولا يزال يذكر حلقات المديح وقد توشح المادح ونقر (طاره) وهو يردد:

وأشواقي على أحمد عظيم الشأن فنديل المدينة الهاشمي العدنان

كل هذه الصور واللوحات تركت بصماتها في قلب الصبي وذاكرته يومئذ فشكلّت جزءاً كبيراً من وجدانه.. ومضى الزمان بنا ودارت الأيام وعادت بي الذاكرة إلى تلك الأيام.. وإلى أوراق قديمة سجلتها في ذلك الزمان الأخضر..أعدت النظر في تلك القصاصات فإذا هي هذه السلسلة من الوقفات في السيرة.. وهي وقفات (بين يدي رسول الله ص)..

ولقد تهيبت الكتابة عن هذا الأمر سنيناً عدداً .. أعزم ثم يَنْحلُّ عزمي إلى أن شرح الله صدري للكتابة أخيراً..

وبدأت الكتابة عن السيرة وكلّي حياء أمام صاحب السيرة ص.. أكتب ولسان حالي ما ردّده أمير الشعراء شوقي وهو يناجي سيد الأولين والآخرين:

أبا الزهراء قد جاوزت حدي   بمدحك بيد أن لي انتساباً

مدحت المالكين فزدت مالاً   وحين مدحتك اقتدتُ السحاب

سيدي يا رسول الله

هأنذا أقف بين يديك بهذه السلسلة متهيباً، يملؤني الخجل، ذلك أن ما سوَّدته في هذه الصحائف لا يعدو أن يكون مجرد (خربشات) لا ترقى إلى سماواتك وشأوك، ولكن عذري أنها دندات محب، والمحبون ذنبهم مغفور وتطاولهم مقبول.

لقد كان قدومك الميمون عيداً للبشرية، وكان كالعافية للبدن، وكالهواء والماء، وكالهواء والماء للأحياء.. لقد منحت الوجود لونه الزاهي.. وطعمه الحلو..

ولئن فاتنا – سيدي يا رسولالله – شرف الصحبة فأرجو ألا يفوتنا شرف المحبة.. وهذه الأسطر هي من وحي ذلك الحب الدفين والود العميق..

سيدي يا رسول الله:

هأنذا أبدأ هذه السلسلة في شهر ربيع الذي شهد قدومك للحياة تبركاً بهذا الشهر.. وأكتب آخر سطور منها في حرمك الزاهي بالمدينة المنورة وقرب الروضة الشريفة..

أدفع بهذه الخواطر والرؤى وأقف بها بين يديك وقفة الخاشع المتأدب عساها تكون في ميزان حسناتي وحسنات القارئ يوم الفزع الأكبر.. ولعلها تكون لآن مدخلاً لشفاعتك فينا يا سيد الخلق..

(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين).. (رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين)

الفقير إلى   تعالى

عُبَيْدُ   / الصافي جعفر الصافي

ربيع الأول ١٤٢٦ـ أبريل ٢٠٠٥

المدينة المنورة

الفصل الأول : عراقة الرسالة والرسول

*** عراقة الرسالة:**

الإسلام هو رسالة الله إلى الناس منذ أن وُجِد الإنسان وإلى أن ينتهي الكون ويؤذن بزوال..

والإسلام معناه إسلام النفس إلى الإرادة الآلهية الشاملة .. ورسل الله كلهم بشروا بهذا الإسلام، من لدن آدم عليه السلام مروراً بالرسل والأنبياء ... ولقد وردت آيات قرآنية كثيرة تؤكد حقيقة هذا الدين وعراقته:

* قَالَ تَعَالَىٰ: (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾) [آل عمران]

وهذا يعني أن الدين – مطلق الدين- المقبول عند الله هو الإسلام، وأن الله ما أرسل رسولاً أو بعث نبياً إلا بالإسلام..

(أ) فقد بشَّر به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ: (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾) [البقرة]

(ب) وبشَّر به عيسى عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ: (۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾) [آل عمران].

(ج): كذلك بشّر به موسى عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ:(إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾) [المائدة]

والظاهر من الآيات أن أي رسالة سماوية نزلت عبر الحقب الطوال نزلت بالإسلام.. وهو كيف يتعلم الإنسان أن يسلم نفسه وأموره للإرادة الإلهية الشاملة.. والدين من هذا الفهم وحدة عضوية واحدة..

والإسلام بهذا الفهم هو طرح أحاط بالمسيرة البشرية وسدد خطاها على مدار التاريخ، وشارك في صياغة مسيرتها الحضارية..

فالمسلم بهذا النسب الأصيل ينتمي إلى دين عريق وإلى موكب ضخم من الأنبياء والمرسلين، يتقدمهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويختمهم خاتم الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. قَالَ تَعَالَىٰ:(قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾) [آل عمران].

وهذه المعلومة تنعكس على المسلم شعوراً بالعزة والقوة والأصالة وتلقي على كاهله مسئوليات جسام..

* عراقة خبر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

ومع عراقة الرسالة كان خبر هذه النبوة عريقاً أيضاً، ضارباً في عمق التاريخ.. وهو خبر أشبه بالحقائق الكونية، وسنرى ذلك في متابعتنا لما ورد في صريح القرآن وصريح السنة والسيرة النبوية الكريمة:

(أ) من القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالَىٰ: (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾) [الأعراف].. إشارة إلى ورود الخبر في التوراة والإنجيل.

* قَالَ تَعَالَىٰ: (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾)[آل عمران] . ويعني ذلك أن خبر النبوة وارد في كتب الله المنزلة.. توراة موسى وإنجيل عيسى.. بل سبق ذلك في الميثاق الأول الذي أخذه الله على الأنبياء .. وهذا عهد سحيق ضارب في العراقة..

(ب) من السنة النبوية:

* الإشارات الواردة في الأحاديث النبوية كثيرة نجتزئ نها هذا الحديث الجامع الذي يرويه الإمام أحمد، فقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده من حديث العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:« إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمجندلٌ في طينته – وسف أنبئكم بتأويل ذلك:

أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام وكذلك أمهات المؤمنين يرين[1])...

(١) الحديث رواه أحمد في المسند ١٢٧/٤و١٢٨ وابن حبان في صحيحه، وأخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

والحديث يشير إلى ثلاث محطات:

* دعوة أبي إبراهيم:

ويعني بذلك قول الله تعالى في سورة البقرة حاكياً عن شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عندما رفعا القواعد من البيت الحرام.. قَالَ تَعَالَىٰ: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾) [البقرة].

واستجاب الله الدعاء فبعث محمد بن عبدالله القرشي من نسل إبراهيم وذريته..

* بشارة عيسى:

فيه إشارة إلى قول الله تعالى في سورة الصَّف: قَالَ تَعَالَىٰ: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾) [الصف]. والعبارات واضحة..

* رؤيا أمه:

روي ابن سعد عن الواقدي بأسانيد متعددة أنّ آمنة بنت وهب قالت: (لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل عني خرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الإبل ببصري، رافعاً رأسه إلى السماء).

(ج): من السيرة النبوية:

* خبر الراهب بحيرا:

روي ابن هشام قال: (ولما تم له من العمر اثنتا عشر عاماً سافر مع عمه أبو طالب إلى الشام في تجارته.. ولما نزل الركب (بصري) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليماً بالإنجيل خبيراً بشئون النصرانية .. وهناك أبصر (بحيرا) النبي فجعل يتأمله ويكلمه، ثم إلتفت إلى أبي طالب فقال له: ماهذا الغلام منك؟ قال: ابني. فقال له بحيرا: ماهو بابنك وما ينبغي أن يكون والد هذا الغلام حياً. فقال: هو ابن أخي. قال فما فعل أبوه؟.قال: مات وأمه حبلى به. قال بحيرا:صدقت، فارجع به إلى بلده وأحذر عليه من اليهود فو الله لئن رأوه ليبلغن شراً، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأن عظيم[1])..

فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة..

والقصة ثابتة بطرق كثيرة لا يلحقها وهن، وقد قال الألباني إن إسنادها صحيح.

* خبر أهل الملأ الأعلى:

وهؤلاء سكان السموات من الملائكة، لهم علم وخبر بهذا القدوم وبهذا النبي، فقد رُوي في قصة المعراج عن طرق كثيرة أنَّ رسول الله ومعه جبريل يأتيان إلى السماء، فيطرق جبريل الباب، فيقول أهل السماء: من بالباب؟ فيقول: إنا جبريل. فيقولون: ومن معك؟ فيقول: معي محمد بن عبدالله..

قالوا فتُسمَعُ بينهم هِزة ورجّة، ويهتفون: (أو قد أرسل إليه؟ أو قد آن أوانة[2])؟ ثم ييستقبلونه فرحين محتفين.

* خبر سلمان الفارسي:

هذا الصحابي الجليل الذي مكث سنين عددا يبحث عن خاتم الأنبياء في رحلة طويلة مع أهل الديانات، وكان أخر عهده براهب منهم كما روي أهل السير، وعندما حضرته الوفاة قال له: يا سلمان قد أظلّك زمان نبيّ يخرج في أرض ذات نخل فترقبه وأصحبه، ومن علاماته أنه: يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة. وجاء سلمان إلى المدينة مع قافلة عربية دفع لهم أجرة رحلته، وعندما وصلوا المدينة خانوه وباعوه رقيقاً ليهودي.

---

(١) السير النبوية – ابن هشام.
(٢) الإسراء والمعراج.

ودخل رسول الله المدينة، وجاء سلمان من ضمن من جاء يسلّمون عليه، وسلمان في ذهنه الثلاث علامات.. ويمكن سلمان ساعات من النهار، ويقدِّر الله أن يأتي رجل بهدية إلى رسول الله فيقبلها ويدعو له، ويأتيه آخر بصدقة فيشكره ويردها إليه.. وبقيت العلامة الثالثة (الخاتم).. يقول سلمان: دخل جماعة على رسول الله فأحتلت وانسرقت حتى كنت خلف منكبيه، وكان عليه السلام ملثماً، فإذا به في ذات اللحظة يضع الرداء عن كتفيه.. وإذا بخاتم النبوة واضح للعيان..

ويعلق ابن القيم على هذا المشهد العجيب ويقول: وعندما أبصر سلمان الخاتم على كتفه صلى الله عليه وسلم إطمأن للدلالتين الاخريتين (الهدية والصدقة) .. هنا قارن سلمان نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه، فلم يلبث أن تقدم وبابع رسول الله [1].. والعجيب هنا أن تأتي النسخة قبل الأصل.. وكتاب الأصل هو سيدنا محمد....!!

كل هذه دلالات على عراقة الخبر.. من كتاب الله والسنة والسيرة النبوية.

* مصادر أخرى تعكس هذه العراقة فلنتابعها:

- كتب الأقدمين:

ورد في كتاب السامافيدا Sama Vida هو من كتبهم الرئيسية (إنَّ أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقيس من الشمس)

- الزرادشتية:

ورد في كتاب زيند افستا Zend Avesta إشارة إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث جاء فيه: (أن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذٍ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وإن نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات).

---

[1] الفوائد – ابن القيم.

- العهد القديم (التوراة):

جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية: (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم).. ومحمد بن عبدالله هو المقصود بهذه الإشارة وفاران هي مكة.

* كذلك أشار إنجيل (برنابا) إلى هذا الخبر.

وبعد:

ماذا تعني عراقة الرسالة وعراقة خبر النبوة؟ وما هي الإضافة التي تضيفها للمسلم أينما كان وللمسلم المعاصر على وجه التحديد؟ إنها تعني الكثير وتشير إلى عدة مدلولات:

١- تعني أن هذا المسلم ينتمي إلى كيان عريق ضارب الجذور في التاريخ ولم يكن يوماً من الأيام ظاهرة عشوائية.. هذا الشعور يكسب المسلم الثقة في النفس واليقين والجسارة في أن يعتز بما يملك ويمضي قدماً في طرحه على الآخرين..

٢- وهي كذلك تنفي أي عوامل انهزام أمام عالم يموج بالأفكار والأطروحات، فلا يتهيب أن يطرح بضاعته في هذا السوق.

٣- وتعني هذه العراقة أن الإسلام واكب مسيرة البشرية في أيامه الأولى ورشّد هذه المسيرة وشارك في صياغتها.. فهو دين عالمي يترحل مع الناس حيثما كانوا ومع البيئات حيث تلونت فيكسبها لونه وطعمه ورائحته.. وبذلك يكون المسلم رائد تغيير وصاحب مبادرات (لتكونوا شهداء على الناس)...

٤- هذا الشعور يشكل شخصية مسلمة تحمل هم البشرية كلها.. ذات أفق عريض وطرح واسع.

الفصل الثاني :إصطفاء وإنتقاء

١. الاصطفاء والاجتباء:

الاصطفاء في اللغة هو (تناول صفو الشيء[١]).. وفي حق الأنبياء يعني أن الله يختار صفوة من عباده يجتبيهم ويهيئهم لدور الرسالة.. يغرس في دواخلهم إمكانات وقدرات تجعلهم يقومون بهذا الدور خير قيام.

والاصطفاء لا تصنعه عوامل وإنما يصنع العوامل، فهو فعل إلهي صرف، وتتم تهيئة المصطفى حسب دوره لمطلوب منه ومن كل النواحي الجسمانية والخلقية.

وقد أشار القرآن على أن العامل الرئيسي في نبوته هو الاصطفاء، فهو قد ولد أمياً، في أمّة أمية، لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولد يتيماً .. ولكن اقتضت حكمة الله واختياره أن تنزل الرسالة – في هذا المناخ ورغم هذه الظروف وفي وادٍ غير ذي زرع وكلها عوامل سالبة – على هذا النبي (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء نم عباده)..

وشأن الله مع جميع رسله وأنبياءه هو هذا الاصطفاء (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) .. (ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا)..

أحياناً يكون الاصطفاء لفرد واحد وأحياناً لأسرة بأكملها (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)..

سبحانه .. فعّال لما يريد..

وفي ذلك رد علي جمهرة من المستشرقين يزعمون أن رسالة رسول الله مجهود شخصي وإنها تشكيلة من ثقافات معاصرة وفلسفات.. وحاشا لرسالته.

ولمزيد من الدلالات على أن أمر الوحي والرسالة كان أمراً إلهياً صريحاً نقرأ الآيات التالية ونقف معها: قَالَ تَعَالَىٰ:(وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾) [القصص].هنا يخاطب الحق نبيه بأنه ما كان يأمل أو يهيئ نفسه لهذا الدور ولكنها إرادة الله واجتباؤه.

---

[١] المفردات – للراغب الأصفهاني

٢- قَالَ تَعَالَىٰ: (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾) [العنكبوت].

والخطاب هنا واضح حين ينفي عنه الكتابة والقراءة وأعمال الذهن لتأليف هذا القرآن وإنما هو آيات بينات.

٣قَالَ تَعَالَىٰ: (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾) [البقرة]. فقد أنزل الله عليه الوحي وكلّفه وكان محتاجاً أن يؤمن بما أنزل الله عليه من غير تعمُّل أو تخبط منه.. ونقرأ في بدايات الوحي في صحيح البخاري عبارة المفاجأة (فاجأه الوحي) وهو ساعتئذٍ في غار حراء.

٤- ونلمس كذلك عندما فتر عنه الوحي .. كيف اجتهد في التماسه زماناً، فصعد الجبال وحام في صحراء مكة.. والحق يعلّمه بأن هذا الأمر لا يأتي بالاستدعاء، ويواسيه بسورتي الضحى والإنشراح عندما لاحظ القرشيون عليه بحثه الدؤوب وقالوا إن محمداً قد قلاه ربه، فخاطبه القرآن مواسياً ومكرماً (ماودعك ربك وما قلى).. ثم يختم السورة بهذه العبارة (ولسوف يعطيك ربك فترضى).. كأنما كانت أيام فترة الوحي مرحلة من مراحل التربية وإتقاد الشوق والترقي والمزيد من التهيأة له ﷺ.

٢- كيف تدرَّج به الحق نحو ساحات الرسالة:

عندما قضت إرادة الله أن يصطفي من بين جميع عباده محمداً ﷺ تدرجت به القدرة وساقته سوقاً هادئاً لطيفاً، فكانت أول خطوة قوله ﷺ (حُبِّبَ إلى الخلاء).. وجد في نفسه عزوفاً من ملاقاة البشر.. وهي بداية لفترة حضانة ومناجاة، فكان يخرج إلى غار حراء (على بعد ٣ كيلومتر من مكة) يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد.

ولازم ذلك قول أهل السيرة: (كان لايري رؤيا حتى أصبحت وتحققت كفلق الصبح).. فكأن الحق فتح عليه كوة على أستار الغيب ومن وراء ستر رقيق هو (النوم)، فكان نومه مجال سباحة في عوالم الغيث حيث ينام الحس والأعضاء وتعمل الروح. والحديث عن الوحي وتداعياته سنديره في رسالة أخرى إنشاء الله..

٣- واقع البشرية في ذلك الزمان:

واقع البشرية في ذلك الزمان – سنة ٥٧١- كان واقعاً يحتم وجود رسالة ووجود رسول فالعالم تتقاسمه خمسة كيانات: الإمبراطورية الفارسية، الرومان، اليونان، الهند، والصين.. وكلها كيانات آيلة للسقوط.. يتفشى فيها الشرك والضلال والظلم والقهر:

أ- الإمبراطورية الفارسية: كان تسودها الزرادشتية التي اعتنقها الحكام وحملوا الناس عليها، وهي تعج بالفوضى، ومن تعاليمها زواج الرجل بأمه وابنته وأخته، وكانوا مجوساً تقوم عقيدتهم على الوثنية وفيهم انحلال.

ب- الرومان: تفردوا بالأنظمة السياسية العنصرية القاهرة.. وكانوا أول أمرهم ضد المسيحية فلما اعتنقوها كانت نقمتهم على المسيحيين الذين خالفوهم في المذهب أشد وأنكى.. وتفرقت المسيحية بسبب ذلك وغيره إلى مذاهب وفرق.

جـ- الهنود: لخص أمرهم الأستاذ أبو الحسن الندوي حين قال: (اتفقت كلمة المؤرخين أن الهند كانت في ذلك العهد في أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً[١]).

د- اليونان: كانوا وثنيين وشغلتهم المغالطات الفلسفية وظهر فيهم إنحلال.

هـ- الصين: قامت فيها البوذية وتحولت إلى دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل، وكان لديهم نظام طبقي أيضاً.

و- الجزيرة العربية: أخذت حظها من الفوضى الدينية والاجتماعية والشرك وعبادة الأصنام والحروب وإن كانت أخف وطأة من الكيانات الأخرى.

---

[١] ماذ خسر العالم بانحطاط المسلمين- الأستاذ/ أبو الحسن الندوي.

مما تقدم نلمس حاجة البشرية ساعتئذٍ إلى مشروع خلاص وإلى رسالة جديدة..

وقد ترقت العالم كله هذا القدوم وفاضت الإشاعات والبشارات بين أهل الكتاب والحكماء أن نبياً ما قد أظل زمانه وجاء أوانه.. من هو؟ ومن أين يظهر؟ .. فهذا سر مكنون في مضامين الغيب ستكشف عنه الأيام.

أسرار الاختيار الإلهي:

لقد ترقبت البشرية كما أسلفنا ظهور نبي، ومدَّت بعض الكيانات والأشخاص والبلاد أعناقها لكي تفوز بهذا الشرف.. كلهم ينتظرون وحي الله.. والله يعلم حيث يجعل رسالته..

١- لقد اختار لها مكاناً.. هو الجزيرة العربية ومكة البلد الحرام.

٢- واختار لها زماناً.. الثاني عشر من ربيع الأول، عام الفيل والذي يوازي ٥٧١م.

٣- واختار لها قبيلة بني هاشم واختار لها أباً وأماً هما: عبدالله وآمنة بنت وهب..

٤- واختار لغة للرسالة هي اللغة العربية.

٥- واختار نبياً: هو محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين.

فما هي الأسرار الكامنة وراء هذه الخيارات..؟!!

١. اختيار المكان:

الجزيرة العربية ومكة المكرمة:

أ- رغم ما ذكرنا من أمر جزيرة العرب وماكانت عليه من فوضى واضطراب فإنما كان ذلك هو أمر نسبي بالنسبة لما يحدث في العالم المحيط، فأهل الجزيرة العربية يومئذٍ أهل بداوة لم تفسدها المدينة فليس فيهم صور ترفها وانحلال أهلها..

وبذلك كانوا أشبه بالمادة الخام وأقرب للفطرة السليمة، وكان لديهم نزاعات إنسانية وكمية من الفضائل من الكرم والنخوة والنجدة، حتى سلوكياتهم السالبة في هذا الباب من قتل البنات فإن الدافع من وراءها هو خوف العار.

ب- لم يكن هناك نظام سياسي قاهر فالعرب لم يعرفوا الكبت ولا ذاقوا قساوة الأنظمة الشمولية مثلما كان عند الأكاسرة والقياصرة فكانوا أحراراً نسبياً في التعبير..

وهذه الحرية هي ركيزة أساسية في سعة الفهم والقدرة على القيادة والمبادرات، وهذ الخاصية هي التي رشحتهم للاستجابة للدعوة وأورثتهم القدرة القيادية دون الشعوب الأخرى لأن الأنظمة الطاغوتية لا تنتج إلا مواطنين منهزمين خانعين.

ج- الجزيرة العربية تقع في الوسط الجغرافي بين حضارة الغرب المادية وحضارة الشرق الموغلة في الروحانيات، ومكة المكرمة هي تقع في وسط الأرض اليابسة من الناحية الجغرافية.

د- وجود الكعبة المشرفة وعراقتها وكونها أقدم بيت لله على وجه الأرض جعل مكة مثابة للناس عبر القرون وجعل الناس يذنعون لزعامتها.

هـ- والعرب عامة هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإبراهيم بعثه الله بالحنيفية السمحاء.. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [آل عمران].

وقد توارث العرب ملة أبيهم إبراهيم ومنهجه في أول العهد إلى أن تسللت إليهم أباطيل في العقيدة شأن الأمم عندما تضعف، ودخل عليهم الشرك في الاعتقاد وعبادة الأصنام وكلها انحرافات وافدة عليهم ولم تكن في تاريخهم..

روى ابن هشام دخول الأصنام إلي مكة قال: (خرج عمرو بن لحي إلى الشام في بعض أموره فلما قدم (مآب) من أرض البلقاء وبها يومئذٍ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فسألهم عنها فأجابوه: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب؟ فأعطوه صنماً يقال له (هبل)، فقدم به مكة وأمر النس بعبادته وتعظيمه ولكن بقيت هناك بقية من الناس لم ينغمسوا في هذا الانحراف وتجاوزوه مثل (قس بن ساعدة الأيادي، ورئاب الشّنّي، وبحيرا الراهب، وورقة بن نوفل) وهؤلاء عرفوا بالحنفاء..

كذلك بقية من ملة إبراهيم في عاداتهم وحراكهم الاجتماعي. لقد كانت جاهليتهم مخلوطة بجزء من شعائر دين إبراهيم مثل تعظيم الكعبة والطواف والحج والعمرة.

وخلاصة القول أن العرب نشأوا حنفاء ثم خالطهم الشرك وداخلتهم عوامل الفساد الأخلاقي رغم أنه بقيت فيهم بقايا مكارم الأخلاق من كرم وشجاعة ونجدة..

ولذلك لما جاء الإسلام حرك فيهم أشواقاً قديمة وردهم إلى إرث كريم كان عليه أسلافهم فلم يجدوا صعوبة تذكر في التسليم بهذا الدين الجديد..

وساعدهم في ذلك أن رسول الله أبقى على الكثير من كريم العادات التي توافق القرآن وقال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).. وخير دليل على ذلك ما قصه أهل السيرة عن (حلف الفضول) والذي شهده رسول الله وهو يافع..

روي ابن هشام: (أن حلف الفضول تم في في ذي القعدة في شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، بنو عبدالمطلب، زهرة بن كلاب وآخرون، فتعاهدوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُرَدَّ إليه مظلمته.. وشهد هذا الحلف رسول الله وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: (لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمر النعم ولو أدعى به الإسلام لأجَبْتُ).

ويقال في سبب هذا الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة واشتراها منه العاص بن وائل السهمي وحبس عنه حقه، فاستعدى علي الأحلاف عبدالدار ومخزوماً، وجُمحماً، وسهما وعدياً فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قيس وصاح مستنجداً رافعاً صوته بظلامته، فسمعه الزبير بن عبدالمطلب وقال: (ما لهذا مترك)، فاجتمع الذين مضى ذكرهم في (حلف الفضول) وقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الرجل الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف. وفي حياة العرب قبل الإسلام كثير من هذه المواقف التي تدل على نبل وشرف، وتدل على أنهم كانوا (مادة خام) للخير، وبقليل من المعالجات تصفو معادنهم وتتفجر طاقات الخير فيهم وهذا ما فعله الإسلام حيث لامسهم فصنع منهم أفذاذاً.

لوحة أخرى يرويها الإمام البخاري تتعلق برأس الكفر يومئذٍ أبو سفيان بن حرب).. لقد كان في رحلة تجارية إلى عاصمة الروم ومعه جمع من القرشيين وسمع بهم (هرقل) واستدعاهم إلى قصره وأكرمهم وسألهم عن هذا الدين الجديد وهذا النبي الجديد في أسئلة كثيرة، ولغرض الاستدلال نذكر سؤالاً واحداً.. سألهم عن الذين يذهبون مع هذا النبي ويعلنون إسلامهم هل يعودون إلى ملة قريش مرة أخرى؟ وهنا كما يقص البخاري همس أبوسفيان وقال: (أوشكت أن أكذب إلا إني خشيت أن يحفظ العرب عني أني كذبت)..

فأجاب أبوسفيان إجابة صادقة ضد نفسه وأوضح بأن ما من أحد أسلم فرجع إلينا.. فهتف به هرقل: (وكذلك يا أبا سفيان حالة الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب).

والشاهد هنا هو النبل في الخصومة، فأبوسفيان هو الخصم الأول للإسلام ساعتئذٍ ولكنه خصم نبيل فهو لا يكذب ليحطم عدوه.

لهذه الأسباب وغيرها كان المجتمع العربي أقرب المجتمعات لتقبل دين الفطرة الإسلام، ولذلك وقع الاختيار عليه ليشهد ضربة البداية لدين عالمي ينطلق من أرض صالحة لنموه والزحف به إلى الدنى.

٢- اختيار الزمان:

أ- الزمان:

هو منتصف القرن السادس الميلادي عام ٥٧١م، وهو زمان تباعد من نبوة عيسى عليه السلام واعترت التعاليم المسحية الكثر من الأضاليل والانحرافات واستحال الدين إلى طقوس وأشكال..

واليهودية كانت آيلة للسقوط ولذلك بعث الله المسيح في معقل اليهودية ليقود حركة إصلاح وتجديد فيها (وللعهد القديم) الذي حُرِّف، وجمدت اليهودية وتحولت إلى طقوس وشكليات، وتحولت من دين إلى نقيض الدين حين بُعثت فيها الأنانية القومية التي حسبت الإله المعبود ملكاً لها دون سائر العباد (نحن أبناء الله وأحباؤه).

وسبقت قدوم المسيحية محاولات إصلاح من بعض اليهود أمثال فيلون الحكيم ولكن لم تجد كلماته أي صدى..

ثم جاء المسيح عليه السلام فلقي صدوداً وعنتاً من حرس اليهودية القديم، واعتبروه مارقاً زنديقاً لأنه نادى بالتوحيد والإصلاح.

وبحلول عام ٥٧١م تقادم الزمان على المسيحية، وأصاب تعاليمها الانحراف، وداخلتها عقائد شركية مثل عقيدة الثالوث، وتفرقت إلى مذاهب وإلى دول تعتنق كل دولة مذهباً.. وقامت الحروب الطاحنة بين هذه الكيانات بسبب الخلافات المذهبية هذا كان حال الزمان من ناحية الديانات السائدة.

ب- عام الفيل:

وهو العام الذي غز فيه أبرهة مكة واستهدف البيت الحرام فصده الله، وإلى ذلك أشار القرآن بسورة أسماها سورة الفيلقَالَ تَعَالَىٰ:(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾) [الفيل].

وشهد الناس مصرع الطغيان وكان إيذاناً بأن عهد الطغيان والأحادية إلى زوال.

ج- شهر الربيع:

الربيع من فصول السنة الزاهية، فيه يزدهر الزرع ويدر الضرع وتخرج الأرض بركاتها ويعتدل المزاج.. في هذا المناخ المواتي وفي هذا الفصل الربيعي قدم رسول الله إلى الدنيا ليكون بداية لربيع الحياة وربيع الحضارة.

٣- اختيار القبيلة والأسرة:

في علم الهندسة الوراثية هناك نظريات كثيرة تشير إلى أثر العرق الطيب في تكوين الشخصية وأنه أحد العوامل التي ينبني عليها تكوين الإنسان.. والله قد اختار الجزيرة العربية ومكة المكرمة دون بلاده لحكمة يعلمها ولأسباب حاولنا أن نفهمها..

وبنفس القدر من المحاولة نتلمس لماذا وقع الاختيار على محمد بن عبدالله القرشي ليكون خاتماً للأنبياء والمرسلين وسيداً لولد آدم..

هو قد ولد من أبوين مثل سائر الناس.. ولكن ما شأن هذه الأسرة التي أراد الله أن يولد فيها وينشأ فيها؟ ما هو حظها من القدرات والإمكانيات الخُلقية والخَلقية؟ هذا ما سنحاول الكشف عنه لأن الأصطفاء من الله يقتضي أن تتعدد خصائص هذا الاصطفاء .. ومنه اصطفاء المنبت والأعراق والأرومة:

* يروي الإمام مسلم في صحيحه قال رسول الله ﷺ : (إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى هاشماً من قريش واصطفاني من بني هاشم) وفي رواية (فأنا خيار من خيار ولا فخر).

* وروى الترمذي أيضاً (أن رسول الله قام على المنبر فقال: من أنا؟ فقالوا: أنت رسول الله عليك السلام. فقال: (أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب.. إن الله خلق الخلق ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة. ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة. ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً).

وواضح من هذه الأحاديث أن الإصطفاء لازم هذا المولود عبر رحلة جينية طويلة وهندسة وراثية عريقة في التاريخ.. ومنذ آدم عليه السلام لا تزال تنتقل هذه الجوهرة النفسية من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة إلى أن حطت رحالها في صلب عبدالله ورحم آمنة بنت وهب.. يقول نسبه أنه (محمد بن عبدالله، بن عبدالمطلب، بن هاشم، بن عبدمناف، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن فهر، بن غالب، بن فهر- وهو الملقب بقريش- وإليه نتتسب القبيلة، بن مالك، بن النضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان).

ونستعرض بعض شخصيات هذه الأسرة لندرك أنها أسرة تتميز بكثير من خصائص النبل والكرم ، وهي خصائص تؤهلها للقيادة:

* الجد الأكبر هاشم:

هو جده الأقرب، وتعرف الأسرة بالأسرة الهاشمية.. وهاشم هذا تولى سقاية الحجيج ورفادة البيت من بني عبدمناف وكان موسراً وأول من أطعم الثريد للحجيج بمكة.. وأول من هشم الثريد ولذلك سمي هاشم.

* عبدالمطلب:

هو جد رسول الله من والده، وكان يُكنّى بشبيه الحمد، وكان سيداً في قومه، ومن أهم ما وقع له أنه حفر بئر زمزم وشهد واقعة الفيل. وتحكي الروايات أنه أمر بحفر زمزم في رؤيا منامية.. ورجل يقوم بالمهتمين: زمزم وحادثة أصحاب الفيل من المؤكد أنه رجل ذو شأن.

* والده- عبدالله الذبيح الثاني:

وقصة نيَّة ذبحه معروفة، فإنّ عبدالمطلب كان له ولد واحد فنذر إن رزقه الله عشرة من البنين أن يذبح أحدهم تقرباً إلى الله.. فرزقه الله العشرة، فساقهم إلى الكعبة ورمى القداح ينهم فوقع الخيار على عبدالله – وكان من أحب بنيه عنده- فحزن وحزنت قريش وذهبوا إلى كاهنة أخبرتهم بأن يفتدوه بعشرة من الأبل.. يرمون القداح حتى تختار الآلهة الفداء من الإبل، ففلعوا حتى وصلت مائة من الإبل، ونجا عبدالله لحكمة يعلمها الله لأن الله استكن في ظهره هذا النور..

وكان وسيماً عفيفاً... ويروى أن فاطمة بنت مُر- وكانت من أجمل النساء وأعفهن- دعته إلى نكاحها فنظر وقال:

أما الحرام فالممات دونه * والحلّ لا حلَّ فاستبينه**

فكيف بالأمر الذي تبغينه * يحمي الكريم عرضه ودينهُ**

* آمنة بنت وهب:

وهي آمنة بنت وهب، بن عبدمناف، بن زهرة، بن كلاب وهي من بني زهرة.. وكانت يومئذٍ تعد أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، وأبوها سيد بني زهرة نسباً وشرفاً.. تزوجها عبدالله في مكة، وبعد قليل أرسله عبدالمطلب إلى المدينة يمتار لهم تمراً، فمات بها ودفن في دار النابغة الجعدي وعمره على الأرجح خمس وعشرون عاماً، وتوفي قبل أن يولد رسول الله ﷺ.. وجملة ماخلفه عبدالله من متاع لابنه محمد: خمسة جمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ.

*** عمه العباس بن عبدالمطلب:**

وقد كان رائداً في قومه وشخصيته معروفة على المستوى الإقليمي، ومن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام.

واشتهر بهمته وحمايته لرسول الله، يروي ابن هشام في السيرة عن بيعة العقبة الثانية: (قال كعب بن مالك يصف تلك الليلة المباركة التي التقى فيها سادات الأوس والخزرج برسول الله ﷺ عند العقبة وسط أيام التشريق وهم يومئذٍ ٧٣ رجلاً وامرأتان، قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويوثق له، فلما جلس كان أول من تكلم العباس فقال: (يامعشر الخزرج إنّ محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه له ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون إنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده).

قال: فقلنا له (قد سمعنا ماقلت، فتكلم يارسول الله، فخذ لنفسك ولربك وما أحببت من العهود).

هذه شخصية متميزة مملوءة حمية وهمة.. فهو على دين قومه إلا أن حميته لابن أخيه تجعله يقف مثل هذا الموقف.. وهي صفة من صفات النبل والريادة.. ولذلك انتهى بنوه وأحفاده العباسيون بأن أقاموا دولة العباسية والتي تركت أثراً إيجابياً واضحاً في مسيرة الحضارة الإسلامية.

*** عمه حمزة بن عبدالمطلب:**

وقد كانت سنة قريبة من سن رسول الله.. وكان صديقاً محباً لابن أخيه، وقصة إسلامه تعكس مدى محبته له وحميته لابن أخيه، فقد روى أهل السير بأن حمزة كان في رحلة صيد وأب محملاً بصيد ثمين ودخل نادي قريش حيث يجتمع الشباب يتسامرون ويشربون، فلقى أحد الناس عند باب النادي فقال له: أين أنت ياابن عبدالمطلب وأبوجهل قد شتم أخيك ولطمه؟ فهاجت هائجة الرجل وتحركت فيه محبته وحميته لابن أخيه، فدخل النادي يبحث عن أبي جهل، ولما وجده لطمه على وجهه على التو وقال قولته المشهورة: (أتسبُّه وأنا على دينه) فذهل جميع من في النادي، وقال أبوجهل: (لقد كانت لطمته لي أخف علي من قوله (أنا على دينه).

ثم ذهب إلى الرسول ودخل عليه وقال له: (يا ابن أخي إني على دينك وأنها كلمة خرجت مني في ملأ فلن أرجع عنها فعلمني دينك هذا).. وكان أن دخل الإسلام وأصبح رائداً ومقداماً فيه حتى لقي الله شهيداً يزود عن دين الله برمحه حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سيد الشهداء حمزة).

هذا مجمل المناخ الذي نشأ فيه والأسرة التي ولد فيها.. وهي أسرة – كما يتضح- ذات عراقة، وتمتلك من المواصفات ما يؤهلها لحمل الخير والقيادة.

وفي البيئة العربية كان لمثل هذه الأرومة والعراقة أثر بالغ في نجاح الدعوة يومئذ، فشاءت إرادة الله أن تصطفي نبياً من أعرق المنابت ليشكّل ذلك جزءاً من القناعة عند المجتمع العربي.. القناعة بالطرح والفكرة والقناعة بالذي يحمل هذه الفكرة، وهذا نوع من (البلاغ المبين).

ولابد من التأكيد على ماتواتر من مبادئ أن عراقة النسب وشرفه ليست كافية في أن تجعل الرجل مقبولاً عند الله وإلا لكان أبو لهب من المقربين، ولكن أن التقى شرف النسب مع شرف السلوك أبدع الإنسان أيما إبداع، وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام فيما يرويه البخاري قال: سئل رسول الله أي الناس أكرم؟ قال: (فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا نعم، قال: (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا).

وانظر إشارته وهو يتحدث عن نسبه، يستعمل هذه اللازمة (ولا فخر).. فكأنه يجمع بين أصالة المبنى وأصالة المعنى..

٤- اختيار اللغة:

واختار الله اللغة العربية لكي يخاطب بها البشرية في خاتمة خطاباته (قرآناً عربياً غير ذي عوج).

ولقد دلت دراسات المقارنة بين اللغات بأن اللغة العربية هي أقدم الألسنة وأعرقها، وأنها لغة غنية بالمفردات وبطرائق التعبير في مجالات الفكر والخيال مما لا يتسع للغات أخرى مثل اللاتينية التي هي أصل اللغات الأوربية، ويكفي العربية فضلاً وشرف أنها أصبحت وعاء لكلام الله تعالى إلى عباده، فكان الخيار الإلهي مبيناً على خصائص ومميزات.

ونلاحظ في ترجمات القرآن إلى اللغات الأخرى أن الترجمة لا تحمل روح النص ولا جره وإنما هي ترجمة لمعاني القرآن وهيهات بين المجالين.

وبعد.. فلقد حاولنا أن نسبر أغوار الحكم والمضامين من وراء اختيارالله تعالى لنبيه مكاناً وزماناً ونسباً ولغة.. وهي مجرد محاولات، وإلا فأن الإحاطة الكاملة بمراد الله تعالى من هذا الاختيار أمر يعلمه الله وحده (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

ولمسنا فيما مضى من سطور كيف تهيأ الزمان والوجود كله لاستقبال نبي.. واستقبال رسالة كانت البشرية أحوج ما تكون إليها..

لسان الكائنات كان ينادي بضرورة هذا القدوم المبارك، والإنسانية تتطلع وتترتب.. لمطالع هذا النور المحمدي..

ولقد لخص أستاذنا العقاد رحمه الله هذه الحالات في عبارات جامعة في كتابه (مطلع النور) حين قال:

(قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة، وقالت حقائق التاريخ لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ)..

وهكذا آن الأوان.. وبدت تباشير الفجر، وأطل على الوجود ذلك القادم النفيس، ي يوم نفيس.. فلنتابع أحداث مولده الشريف صلوات الله وسلامه عليه.

الفصل الثالث : القدوم المبارك

الحدث الكبير :

قد تهيأ الوجود كله لاستقبال رسول ورسالة.. وظهرت حاجة البشرية إلى هذه الرسالة .. وتناصرت التباشير والرؤى ومقولات الكتب القديمة على أن مولوداً ما سيولد في مكان ما.. يختم الله به الرسالات، وتشكل ولادته بداية ولادة جديدة للبشرية.. واختار الله المكان والزمان واليوم والشهر..

وذات يوم هو يوم الاثنين – أوسط أيام الأسبوع- وفي أول الضحى وفي حرم الله مكة.. وفي شعب بني هاشم أطلق الطفل صيحته وهو يخرج من بطن أمه معلناً القدوم المبارك.. يقول المؤرخون أن محمد بن عبدالله ولد صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر إبريل عام ٥٧١ كما حققه العالم الكبير سليمان المنصور نوري والمحقق الفلكي محمود باشا..

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبدالمطلب تبشره بالحفيد.. فاستبشر وهش وبش وجاء وحمله ودخل به الكعبة ودعا الله وشكره .. ويروون أنه ارتجز أبياتاً تعبيراً عن طربه:

الحمد لله الذي أعطاني   هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان   أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى يكونُ بلْغة الفتيان   حتى أراه بالغ البنيان

وصنع وليمة كبيرة دعا لها الناس وسماه محمداً..

وأورد ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) تعليلاً جميلاً لاختيار هذا الاسم غير المعتاد عن العرب... قال: (محمد اسم مفعول من (حمد)، فهو محمد إذا كان كثير الخصال التي يحمد عليها، ومحمد من المضاعف للمبالغة، فهو الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره)..

وحين سئل عبدالمطلب قال: (سميته محمداً ليكون محموداً عند أهل الأرض وأهل السماء) ولقد صدق ظنه..

وبعد..

لقد انتظرت البشرية واشتاقت وتشوقت لهذا الظهور الذي أصبح ضرورة ملحة نادت بها حقائق الكون والتاريخ والجغرافيا، واستجاب الله لهذه الأشواق فكان القدوم المبارك..

- في بلد مبارك.. هو حرم الله مكة
- وفي شهر مبارك .. هو شهر الربيع، موسم تفتح الحياة وموسم الاسترواح بين فصول السنة.
- وفي يوم مبارك – يوم الاثنين- أوسط أيام الأسبوع.
- وفي اليوم الثاني عشر.. بداية الأيام البيض وأوسط الشهر.
- وفي أسرة مباركة – هي الذؤابة من قريش.

واستقبل الكون هذا الحادث بمظاهر الحفاوة والاهتمام..

فنقرأ في السيرة أن هنالك عدة إرهاصات رصدت ساعة مولده عليه الصلاة والسلام هي:

- واستقبل الكون هذا الحدث بمظاهر الحفاوة والاهتمام.. فنقرأ في السيرة أن هنالك عدة إرهاصات رصدت ساعة مولده عليه الصلاة والسلام هي:
- خمدت نار فارس.
- انشق إيوان كسرى.

ومظاهر أخرى في الكون بعضها رصد وبعضها لم يرصد يرويها الرواة، وهذه المظاهر تثير الكثير من الحديث حولها.. يريد الناس أن يحاكمونها إلى لغة زماننا وتعابيره.. وذهب الناس حولها ماهب شتى، وأنا أميل إلي تصديق حدوثها... والفاعل هو الله لا شريك له والوجود كله ملكه.. وهذا سيد ولد آدم يقدم إلى الوجود فليس بمستبعد أن يستقبله الكون في مهرجان يقدره الله..

وفيما يلي من فقرات أتناول هذا الحدث من مداخل تأصيلي:

١- تأصيل ظاهرة الخوارق التي استقبلت قدومه صلى الله عليه وسلم:

الكون يتكون من أربعة ممالك: مملكة الإنسان، الحيوان، الجماد، النبات.. وإذا استثنينا الإنسان بحكم أنه مدرك عاقل، فإن بقية الممالك الثلاثة هي جميعا مُسبِّحة بحمد ربها.. قانتة أوّابة.. كذلك فطرها الله تعالى.. حتى عالم الجماد هو في حالة حركة وتسبيح لأن كلمة جماد كلمة (مجازية) .. ولقد ثبت أن الذرة الصغيرة في حالة تذبذب دائم وحركة وانعدام ووجود..

والقرآن ذخر بالإشارات الواضحة إلى ظاهرة التسبيح الكوني وقنوت الوجود.. ولغرض البحث نتجزئ هذه الآيات من كتاب الله العزيز:

قال الله تعالى مفتتحاً عدداً من السور: (سبح لله مافي السموات ومافي الأرض وهو العزيز الحكيم).. جاء ذلك في افتتاح سورتي الحشر والصف..

وقال جلّ شأنه: (سبح لله مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم في افتتاحية سورة الحديد..

وجاءت الإشارة بصيغة المضارع في افتتاحية سورة التغابن:

(يسبح له مافي السموات ومافي الأرض له الملك وله الحم وهو على كل شيء قدير)

وفي سورة خاطب نبيه مذكراً له بني الله داؤود وظاهرة تسبيح الجبال والطير معه قَالَ تَعَالَىٰ:(ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾) [ص].

وفي آيات أخرى (يا جبال أوتي معه) .. وفي آيات أخرى يذكر خضوع الوجود كله وقنوته للملك الديّان (كل له قانتون)..

وجماع مهرجان التسبيح هذا ورد في سورة الإسراء حين يقول الحق جل جلاله وتقدست أسماؤه: (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) [الإسراء].

والآيات هنا تفصل مهرجان التسبيح.. وإنه يدور في تلك السموات السبع ومن فيهن.. ثم تختتم بهذا التحديد الحاسم (وإن من شيء) مطلق الأشياء.. (إلا) وهي أدا حصر.. (ويسبح بحمده).. فهو تسبيح مطلق، والقرآن حجب عنا فهم لغة هذا التسبيح وأنغامه المبثوثة في الوجود والكائنات.. والله الذي قال ذلك، فعّال لما يريد.. خصّ بعض عباده بأن فتح لهم بعض القنوات ليسمعوا هذا الهمس والتسبيح (يختص برحمته من يشاء من عباده)، فهو الذي أوجد القانون وهو الذي يستطيع أن يعقله كما علق خاصية الإحراق في النار شأن إبراهيم عليه السلام فجعلها لوناً فقط!!.. ومصداق ذلك من التجربة الإسلامية ما ذكره الإمام البخاري رضوان الله عليهم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل).. كيف يسمعونه؟ .. كيف حدث؟.. هذا سر بين الله وبين بعض الخلص من أصفيائه..

كذلك في حديث أبي ذر والذي أورده الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن النبي أخذ في يده حصيّات فسُمع لهن تسبيحاً كحنين النحل.. وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم..

ويروي الإمام أحمد في مسنده عن ابن أنس عن أبيه عن رسول الله أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم: (اركبوها سالمه ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله)..

من كل ذلك يتضح بجلاء أنّ تسبيح الكائنات ثابت ووارد في طبيعة تكوين هذه الكائنات، وأن الحق سبحانه قد أتاح لبعض عباده أن يسمعوا هذا الهمس والتسبيح.. ونُلاحظ أن هذا التسبيح الكوني يشذ عنه بعض الآدميين فيكونون كفاراً بالله بعيدين عن نهجه..

والمنهج الذي يعيد الإنسان إلى حظيرة الكون القانت المسبح هو الإسلام بأركانه وتوجيهاته وتعاليمه.. فهو بذلك مشروع لعودة الإنسان إلى ظاهرة التسبيح الكوني.. فيكون بذلك منسجماً مع الوجود ليعيش في سلام مع مناخ الكائنات، يوقع نفس إيقاعه، ويكون الكافر بذلك صوتاً نشازاص أجش في منظومة الأوركسترا الكونية..

وميلاده صلى الله عليه وسلم كان يعني للكائنات قدوم الرجل الذي سيعيد ترتيب أوضاع البشرية وأوضاع الإنسان.. ويعلمه كيف يسبح بحمد ربه ويعبده، وبذلك يكون منسجماً مع الوجود كله.. فكان لابد لهذه الكائنات أن تهش وتبش وتطرب لقدوم قائد ركب الآدميين إلى ساحات رب العالمين إخباتاً وتعبداً.. قدوم الرجل الذي سيعيد انسجام الإنسان مع الكائنات صلوات الله وسلامه عليه.. ولذلك ظهرت هذه الإرهاصات في أماكن شتى، رُصد بعضها وبعضها لم يُرصد..

وهي عندي تسلسل منطقي لا غبار عليه ولا شبهة فيه، وليست مستحيلة في حق الله تعالى فالله فعال لما يريد، بيده ملكوت كل شيء، ويختص برحمته من يشاء..

إذن كان قدومه عليه الصلاة والسلام إيذاناً بهذا الانسجام وكانت بركة على الدنيا كلها

كان للدنيا مثل العافية للبدن، ومثل الماء للحياة..

ومضت أيام طفولته كريمة، وساقته الأقدار إلى بداية بني سعد في صحبة أمه من الرضاعة حليمة السعدية حيث أرضعته.. وشهدت تلك البادية بواكير طفولته، وادخرا لله فيها بعض ظواهر تكريم.. ولقد سجلت أمّنا حليمة قصة تلك الطفولة المبكرة، وكيف ظفرت به وحملته معها إلى البادية في لوحة رائعة أخاذة، فلنسمع لها:-

٢- حديث حليمة السعدية:

قال ابن اسحق وهو يروي حيث لحليمة السعدية مرضة رسول الله : كانت حليمة تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء. قالت: و>لك في سنة شهباء لم تُبق لنا شيئاً. قالت: فخرجت على إتان لي قمراء، معنا شارف لنا، والله ما تُبض بقطرة لبن، وما ننام ليلنا أجمع من صبيبنا الذي معنا من بكائه من الجوع، مافي ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكن نرجو الغيث والفرج..

فخرجت على إتاني تلك، فلقد أدمت بالركب حتى شق عليهم ذلك ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك إنا كانا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري أنا. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: إني لا أكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. قال: لا عليك أن تفعلي، عسى أن يجعك لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فحملته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره.

قالت: فلما أخذته رجعتُ به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافلٌ باللبن، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريّا وشبعاً، فبتنا بخير ليلة! قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمة مباركة، قالت: قلت: والله لأرجو ذلك..

قالت: ثم خرجنا وركبتُ أنا إتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب لا يقدر عليه شيء من حُمُرهم، حتى أنَّ صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك! أربعي علينا، أليست هذه إتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لي. فيقلن: والله إن لها شأناً..

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت أغنامي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبْنا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم أسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لُبناً، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير منذ قدومه علينا حتى مضت سنتاه وفصلته. وكان يشبُّ شباباً لا يُشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً حفراً. قالت: فقدمنا به على أمه وقلت لها: لو تركتي ابني عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة. قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا)..

هذا نص ما أوردته كتب السيرة روايةً عن حليمة السعدية وهي تقص قصتها وتحكي انطباعاتها.. ولا بد من وقفة تأمل أمام ما أوردته.. تأمل وتفكيك لعباراتها.. فهي ترسم لوحة مكتملة الملامح لهذا الرضيع الظاهرة.. ولعل أكثر ما يشد القارئ والناظرفي روايتها هو هذا الصدق الفائق الفائت على الحد الذي انتظم مفردات حديثها.. فإلى مواطن التأمل :-

وقفات وتأملات في حديث حليمة :

١- اللوحة الأولى:

- شخوص القصة:

ترسم القصة لوحة لخمسة شخوص: حليمة، زوجها، طفلها، الحمارة، والناقة المسنة.. وتعطي كل واحد من هذه الشخوص وصفاً يفيض بالكآبة والفقر والعوز:

- فالناقة مُسِّنة (شارف لنا).. والشارف هي الناقة المسنة ليس بها لبن.
- والحمارة (إتان قمراء) .. والإتان هي حمارة عرجاء.
- والطفل: لاينام من الجوع.
- وحليمة: ضعيفة جوعانة.. ثديها خال من اللبن.
- زوجها: يحمل كل هذه الهموم.

صورة قاتمة لهذه الأسرة وهي تُقبل على مكة، وغايتهم (نلتمس الرضعاء) ليفيدوا منهم.

٢. اللوحة الثانية:

<u>جولة داخل مكة:</u>

هؤلاء المرضعات القادمات من البادية يُقْمنَ بجولة بحث داخل شعاب مكة يبحثن عن الأطفال.. فيعرض عليهن هذا الرضيع اليتيم فلا يتحمسن له لأنه في عُرفهن (غير ذي جدوى) .. وهنا يتجلى صدق هذه المرأة فتقول: (فما منا امرأة إلا وعرض عليها رسول الله فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم).. ثم تعلل ذلك بقولها: (يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده) ثم بلغت قمة الصدق حين قالت (فكنا نكرهه لذلك)..

كثيراً ما تسألت كلما قرأت هذا النص (ما الذي يدعوها إلى هذا المستوى من الاعتراف (المكاشفة مع النفس) .. خاصة وأنها قطعاً تكون قد روت هذه الرواية بعد أنصار الرضيع نبياً ورئيس دولة.. ثم أقارن كمية الإفك الاجتماعي الذي نمارسه ونحن ندندن حول أصحاب وجاهات أو سلطات.. وتسمع روايات تضحك لها كثيراً..

ما سر هذا الصدق؟ .. هو صدق غير مطلوب وغير مرغوب فيه في المعايير العادية عند الناس .. ولكن يبدو أن الحق سبحانه وتعالى كما اصطفى من بين خلقه نبيه لأداء الرسالة واصطفى الزمان والمكان.. اصطفى له المرضعة.. أراد له أن يتغذى لبناً من ثدي أم لا تعرف الكذب.. أمٌّ تتمتع بالشفافية والصدق، والذي سيشكل عنصراً أساسياً في دعوته (أيكون المؤمن كاذباً قال: لا).. هي العناية التي رعته وهيأته وهيأت له المناخ..

ثم تمضي وهي على كرسي الاعتراف الطوعي حين تقرر (فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري أنا .. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي – وتعني زوجها-: والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه! قال: لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة..

ثم تعود أمنا حليمة رضوان الله عليها فتدهشنا مرة أخرى.. وتأخذ بألبابنا حين تقرر: (فذهبت إليه فحملته فوالله ما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره)!!

ياللعجب.. وماأعجبك أيتها المرأة الفريدة.. إنها أنوار النبوة.. وإرهاصاتها.. وبداية حظها في الأرض.. الصدق ثم الصدق ثم الصدق.

٣- اللوحة الثالثة:

- <u>البشارات وبوادر الخير:</u>

أخذت حليمة الرضيع اليتيم وذهبت به إلى حيث تنزل.. وهنا نلمس.. فيض البشارات التي بدأت تتنزل والخير الذي بدأ ينهمر قالت:

أ- فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري <u>أقبلب عليه ثدياي بما شاء من لبن</u> ولاحظ تعبير (أقبل عليه ثدياي) لقد امتلأنا لبناً حتى امتدتا للأمام وأقبلنا بعد أن كانتا ضارمتين!

ب-وتمضي الرواية (شرب هو وشرأخوه وناما وقام زوجي إلى ناقتنا العجفاء المسِنّة فإذا إنها لحافل باللبن فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا رياً وشبعاً وبتنا بخير ليلة).. الرضيع بدأ بداية مباركة عندما حط في رحلها.. رأوا هذا الخير يتدفق .. فكان عند قدومه بداية خير كثير..

ج- ثم أصبح الصباح وخرج الجميع كلهم قافلين إلى بادية بني سعد.. وأخذت حليمة رضيعها العجيب وهي محتارة في هذه الظاهرة.. فإذا بالخير يتواصل.. قالت عن حمارتها العجفاء الهزيلة إنها امتلأت نشاطاً وسبقت كل أهل الحي حتى كانوا يناشدونها بأن تنتظرهن ويقلن لها ويحك يا ابنة أبي ذؤيب أليست هذه إتانك التي كنت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي. فيقلن لي: والله إن لها لشأناً، وقد صدقن..

د- بادية بني سعد: كانت أجدب بلاد الله في تلك السنة ولكن القادم الجديد امتدت بركته إلى دار حليمة.. قالت: (وقدمنا منازلنا من بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها).. ولكن (كانت أغنامي تروح عليّ شِباعاً لُبناً).. ممتلئات باللبن.. وكانت أغنام أهل الحي تروح عليهم جياعاً.. وظهر التميُّز والبركة..

ه- الكلمة الذهبية: ثم تختم روايتها بهذه العبارة المدهشة وهي تلخص بركته عليه السلام وأثره: (فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير منذ قدومه علينا) ..

مع كل صباح وكل ليل تلمس حليمة خيراً جديداً وتدفقاً ووفرة.. والعبارة تفيض بالاعتراف والوفاء والإيضاح، والصياغة تفيد الاستمرارية (فلم نزل)، وتفيد العبودية الخالصة لله ورد الأمر عليه (نتعرف من الله الزيادة والخير)، التعرف هو إدراك هذا الخير ولمسه وتذوقه والتلذذ بطعمه.

إنها عبارة نفيسة تصلح أن تكون عنواناً للقدوم المبارك.. والبشرية التي أكرمها الله بالإسلام لا يزال لسان حالها يردد خلف أمنا حليمة هذه الكلمات الشاكرة وهي تقول: (لئن فاتنا يا أمنا أن نشهد طفولته في بلادنا وأن يكرمنا الله بها فنحن لم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير منذ أن استقبلنا شريعته وأفسحنا المجال لتعاليمه وسيرته أن تعيش بيننا).. إنها كلمة ذهبية. وهي مفتاح السر في دعوة الله وفي الإسلام..

حادثة شق الصدر:

روى الإمام مسلم ١٠٢/١٠١/١ قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه فشق قلبه واستخرجه واستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه- مرضعته- ينادون أن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون.. ولقد ثبت في الصحيح حادثة شق صدره أكثر من مرة..

ولقد تعرضت هذه الحادثة إلى كثير من النقاش في مدارس التفكير الإسلامي ولا أرى مما يبرر هذا الأمر لأن الأمور كلها بيد الله تجري بمقاديره وهو فعال لما يريد..

وشق الصدر هو إشارة واضحة جلية إلى أن رسول الله هُيِّئ لأن يكون معصوماً مبرءاً.. فكانت توحي لنا بأنه عليه السلام تمت برمجته ليتهيأ للنبوة، ولتلقي الوحي الإلهي الذي سينزل على قبله فيجده قلباً صافياً من أي كدر أو غبش.. والله أعلم حيث يجعل رسالته.. والله حين يختار القلب الذي سينزل عليه وحيه دون القلوب لابد أن يعد هذا القلب لعملية تلقي الوحي الإلهي والتنزلات الربانية فلا غرابة في ذلك والله على كل شيء قدير.

قال أنس بن مالك: (كنت أرى أثر هذا الخيط في صدره)..

والحادث حدث في أيام طفولته الأولى في بادية بني سعد، وكان سبباً في عودة حليمة به إلى أمه آمنة بنت وهب.. وأسدل الستار عن هذه الأيام النضرات المضيئة وتلك الطفولة (الطاهرة) في تلك البادية القحلة.

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله.. ورضي الله عن تلك البقعة (بادية بني سعد) التي شهدت طفولتك الباهرة الندية.. وبركات الله على أمك حليمة وهي تحملك ..وهي ترضعك.. وهي تقص تلك الذكريات الغالية النفيسة..

الفصل الرابع: تأملات وتداعيات

تأملات وتداعيات:

الناظر في هذا الجزء من سيرته صلى الله عليه وسلم (القدوم المبارك) تسترعي انتباهه عدة ملاحظات هي حرية أن نقف عندها لأنها تعكس مقدار عناية الله تعالى بهذا الرضيع والقادم الجديد.. وكيف خرج ما بين فرث ودم ليكون للعالمين نذيراً .. يخترق حاجز الزمان والمكان ليصدح صوته في الدنيا كلها بأن الله ختم به الرسالات، وختم بالكتاب الذي جاء به خطاب الله للبشرية.. والتأملات التالية تحاول أن تغوص في هذا الجزء من السيرة تستخرج بعض الظواهر:-

١- ظاهرة الوسطية:

لقد ولد عليه الصلاة والسلام وأحاطت به ظاهرة (الوسطية):

<u>مكة المكرمة</u>: والتي ولد فيها تمثل وسط الأرض اليابسة من الناحية الجغرافية.

<u>شهر الربيع</u>: الذي ولد فيه يمثل أوسط فصول العام بين صيف وشتاء وربيع، وهو فصل تتفتح فيه الحياة ويعتدل الهواء ويخضر الزرع .. هو ربيع الحياة.

<u>واليوم الثاني عشر فيه</u>: هو بداية الأيام البيض والتي تمثل وسط الشهر.

<u>والعالم الذي ولد فيه (٥٧١م):</u> يمثل النصف الثاني من القرن الأول للميلاد.

<u>والجزيرة العربية</u>: تمثل الوسط بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية، وجاءت الرسالة (وسط) بين احتياجات الجسم واحتياجات الأرواح، وجاء المسلمون أمة وسط (جعلناكم أمة وسطاً)..

والوسطية تؤهلهم للحكم على الآخرين (لتكونوا شهداء على الناس) ومن بعد ذلك (يكون الرسول عليكم شهيداً)..

فظاهرة الوسطية أحاطت برسول الله صلى الله عليه وسلم ولونت حياته وسلوكه كله، والوسطية هي الفطرة غير المشوشة.

* الوسطية في أوصافه الجسيمة: فهو في شكله ربعة وسط (ربعة لا تقحمه العين من قصر ولا تنشؤه من طول)

٢. ظاهرة المفارقات:

وهي تعني كمية من الأحداث لا تتناسب مقدمتها مع نتائجها..

أنت أمام مقدمات تقود حسب المنطق العادي إلى نتائج سالبة، ولكن نجدها في سياق هذه المرحلة من مراحل السيرة تقود إلى نتائج إيجابية وعلى سبيل المثال:

(أ): اليتيم والعيش والكفاف:

لقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيماً: مات أبوه وهو في بطن أمه، وتوفيت والدته وعمره ٦ سنوات، وعاش بعد ذلك متأرجحاً بين بيت جده عبدالمطلب وعمه أبو طالب.. في بيوت نبيلة ولكنها ترضى بالكفاف من العيش.

- واليتيم في الغالب الأعم ينشأ وهو منكسر الخاطر، غير مستقر وغير متوازن لفقده حنان أبويه..

- والعيش الكفاف يعكس في النفس العادية أثراً من الحنق والحقد على المجتمع، فيولد شخصية معقدة من تاريخها الفقير.. هكذا تقول النتائج العادية في الأطفال العاديين.. ولكن عندما نستعرض سيرته صلى الله عليه وسلم نجد نتائج مغايرة تماماً، نجد شخصية كاملة متوازنة مليئة بالاستعدادات للقيادة والمبادرة لم يترك اليتيم فيها أثراً سلبياً وإنما آثاراً إيجابية، فاكتسب من اليتيم معرفة بأسرار الحياة وأسرار هؤلاء المحرومين فكانت سنته مواساة وعطف عليهم (أنا وكافل اليتيم مثل هاتين)

- والكفاف من العيش كانت نتائجه بأنه أصبح رحمة للعالمين كما وصفه القرآن (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .. (إنما أنا رحمة مهداة).. (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم أزواجه أمهاتهم).. وهذا يعني أنه أبوهم، وبحق أصبح أباً للمؤمنين وتجاوز العُقَد التي يحدثها الفقر فكان يتذكر بعد أن أوتي النبوة ورئاسة الدولة: (كنت أرعى الغنم على قراريط من قمح لأهل مكة).

(ب) ظاهرة الأمية:

عاش رسول الله أمياً على أصح الأقوال، فهو أمي وولد في أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، والأمية هنا تعني الفطرة السليمة التي لم تشوشها فلسفات أو تراكمات ثقافية مما كان سائداً، وتتجلى المفارقة في أن هذا الأمي العجيب دانت له العلماء وأصبح محور الفكر والعلم (وعُلِّمت ما لم تكن تعلم)..

وكما قال أحمد شوقي:

يا أيها الأمي حسبك رتبة   في الفضل أن دانت لك العلماء

ج) البيت الحرام والوادي القاحل:

وصف القرآن مناخ البيت الحرام والذي ولد فيه رسول الله بأنه (وادي غير ذي زرع).. ومعلوم أن الحضارات نشأت وقامت على ضفاف الأنهار وارتبطت بالزراعة إلا الحضارة الإسلامية التي ارتبطت نشأتها بوادٍ منخفض لا زرع فيه ولا ضرع ولكنه أصبح قبلة الحضارات الإنسانية.. حجَّت إليه وأخذت عنه وتلونت بلون الإسلام.. نشأت الدعوة في هذا الوادي وزحفت فلامست الحضارات العريقة (بابل وآشور والكلدائين والفرس والروم) فابتلعتها ولونتها بلون الإسلام، وهنا تكون المفارقة .. مقدمات لا تؤدي إلى النتائج التي أنتهت إليها .. وهنا يكمن السر الأعظم.. السر في تلك التجربة الإبراهيمية والدعاء الإبراهيمي عندما رفع القواعد من البت فدعا للبيت والمقيمين حوله من أسرته الصغيرة بأن يرزقهم الله أمانان:

- أمن عام (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم)..
- أمن غذائي (وأزرقهم من الثمرات)..

الأمنان هما دعامة الحركة الحضارية.. فاستجاب الله له وأصبحت الكعبة مهوي الأفئدة .. ونشأت مع ذلك التجارة والتبادل الثقافي والتجمع حولها..

في أرض المفارقات هذه أراد الله لنبيه أن يولد، ليكون حدثاً فريداً وظاهرة استثنائية.

(د) الذبيحان:

والذبيحان هما جده البعيد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ووالده القريب عبدالله..

والشابان تعرضا لتجربة الذبح بغرض الوفاء.. وفاء إبراهيم للرؤيا ووفاء عبدالمطلب لنذر نذره أن يذبح واحداً من أبنائه لله إن رزقه عشرة من البنين..

وتوشك أن تتم التجربتان لولا تداخل العناية الإلهية في تجربة إبراهيم بالوحي الإلهي والفداء.. وفي تجربة عبدالمطلب بالإلهام الذي ساقهم إلى العرافة فانتهوا إلى الفداء أيضاً..

فكأن ولادته جاءت ما بين فرث ودم.. وجاءت عبر مقدمات سالبة ولكنأدت إلى نتائج إيجابية، فاستقبل الوجود سيد الوجود صلى الله عليه وسلم.

(هـ) بادية بني سعد:

وهي البادية التي شهدت طفولته عندما أخذته مرضعته حليمة إلى ديارها.. وهي تصف تلك الديار: (وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها)..

في هذه البيئة القاحلة الجدباء الفقيرة التي لا يخرج منها إلا الضعاف الهزيلين في البينية كانت النتائج أن أمرعت البيئة وجاءها الخير الذي عبّرت عنه حليمة: (فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير منذ قدومه علينا).. ولاحظت أنه كان ينمو نمواً لايشبه فيه الأطفال.. نمواً زائداً (يشبُّ في اليوم ما يشبّه الصبي في الشهر).. هذه كلها مفارقات ومقدمات سالبة قادت إلى نتائج إيجابية لأن عناية الله أحاطت بهذا القادم الجديد وأبدعت في إخراجه.

(و) ظاهرة الوجاهة والسؤدد:

لقد لمسنا أن رسول الله انحدر من أسرة كريمة وأرومة عريقة لا مطعن فيها، أضف إلى ذلك أنه انتهت إليه ختام النبوات والرسالات، ثم رئاسة الدولة..

الحقائق الثلاث كل واحدة منها كفيلة بأن تحدث أثراً سالباً في الشخصية العادية، فيتعالى صاحبها ويشمخ بأنفه.. وينتهي إلى طغيان وكبرياء ساحق.. هذه نتائج لمقدمات يسندها المنطق ويسندها واقع التاريخ عبر سيرة البشرية ولكن.. نقترب من سيد الناس فإذا بنا أمام شخصية تمتاز بخصائص هي عكس هذه النتائج.. خصائص ومواصفات كلها تواضع وسهولة في التعامل، ويسر مدهش،

والنماذج في سيرته كثيرة نجتزئ منها لوحتان:

(١) <u>اللوحة الأولى: جبر خاطر المرأة العجوز:</u>

يحكي أهل السيرة أن امرأة عجوز مجهولة الاسم والنسب كما أراد لها كتاب السيرة هي من عامة الدهماء جاءت إلى رسول الله تسعى وهي تحمل قصعة من لبن هدية لحبيبها محمد . وصادف في ذلك اليوم أنه كان صائماً صيام تطوع واليوم في ربعه الأخير وأوشكت الشمس أن تغيب.. فماذا فعل سيدي رسول الله؟

لم يردها ويتعلل بأنه في عبادة وأنه صائم، وإنما تناول منها القصعة وشرب مابها من لبن جبراً لخاطرها..

هي رسالة لنا في فهم دين الله الفهم الواسع الذي يفاضل بين صيام تطوع تعود فائدته للفرد الصائم وبين تطييب خاطر لامرأة عادية .. تطييب يتعدى مردوده الفرد الصائم إلى فرد آخر من أفراد المجتمع..

ورسول الله حين يفعل ذلك لا يرتد عن عبادة وإنما يغير خط سيره إلى الله.. كان سائراً إلى الله عن طريق الصوم (خط رقم ١)، فتحول في ذات الطريق إلى(خط رقم ٢) وهو(جبر الخاطر)..فسار إلى ربه عبر هذا القسم من الطريق وهو طريق أسرع لأنه يتعلق بالآخرين..

ونلاحظ أنه جبر خاطر امرأة عجوز ليست ذات خطر ولا تمثل أغلبية أو جهات ضغط، ولكنها تمثل معلماً من معالم السلوك في هذه الدعوة.. وليتنا نرتقي إلى هذا الفهم الكلي لأهداف الدين، ووسائل السيرفيه..

(٢) <u>اللوحة الثانية: إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة:</u>

يروي أهل السيرة أن إعرابياً مجهول الاسم أيضاً والهوية دخل على رسول الله فارتجف هيبة من النبي .. فاقترب منه رسول الله وربت على ظهره وقال له: (لا عليك يا أخي فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)..

والقديد هو أباس أنواع الطعام.. هو اللحم الناشف (الشرموط).. ولو ربطت هذه العبارة بالمناخ الذي قيلت فيه لعلمت أنها عبارة نفسية.. فالذي نطق بها هو: رأس الدولة وسيد ولد آدم وخاتم النبيين وصاحب الحسب والنسب..

والمنـاخ الـذي قـال فيـه العبـارة منـاخ يحتقـر المـرأة ويقتلهـا، ويتعفف بالانتساب إليها.

المقدمات لا تـؤدي إلـى مثـل هـذه العبـارة .. ولكنهـا النبـوة.. ولكنه البعث الجديد والولادة الجديدة للبشرية..

ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة.. إمراة فقيرة لا تجد حظها مـن اللحـم الطـازج فتعمـد إلـى لحـم مجفـف مضـت عليـه أيـام وشهور..

إنهـا النبـوة وكفـى.. لأن بعـض المعـاني يفسـدها التفصـيل والشرح..

خاتمة المطاف

استراحة وهجعة:

قدر الله لكاتب هذه السطور أن يزور الجزيرة العربية حاجاً ومعتمراً وزائراً في موسم ١٩٩٨م..

قضى أياماً زاهيات مباركة في بلد الله مكة وداخل المسجد الحرام.. شاهد وعاين الكعبة الشريفة.. طاف ولبّى.. وتأمل وتغرس ما وسعه التأمل.. ثم أغذ السير إلى حرم رسول الله (المدينة المنورة).. قضى ساعات يتأمل طريق الهجرة.. ويستعرض أحداث الهجرة حتى حطت به القافلة في المدينة..

دخل المدينة ذات أصيل جميل.. ودلف إلى المسجد النبوي الشريف وصوب سيره تجاه مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الحجرة المباركة النفيسة.. وأدى التحية والسلام لسيد ولد آدم ولصاحبيه أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما..

وشاهد احتشاد الخلق.. هؤلاء المسكونين بمحبته صلى الله عليه وسلم.. ساعتئذٍ ثارت في حنايا نفسه شجون وتحركت أحاسيس.. فعمد إلى القرطاس يسطر هذه الأحرف عساها تكون شفيعة له عند سيد الأولين والآخرين يوم تعز الشفاعة إلا لمن أذن له الله..

شكر وعرفان

الشكر لله العلي القدير الذي أذن لهذه السلسلة أن تبدأ..

ونسأله أن تتهيأ الظروف لإكمالها حتى تغطي كمية من اللوحات في السيرة النبوية..

والشكر لهؤلاء الشباب الذين قاموا بجمع هذه المادة وأخرجوها في صورتها النهائية وهم:

- أمير محمود عبدالسلام.
- علي عثمان علي قشي.
- جليلة مختار عثمان.
- زين العابدين طه – بمدينة الرياض- السعودية.

المراجع

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري.
- مسند الإمام أحمد.
- لطائف المعارف- ابن رجب الحنبلي.
- السيرة النبوية – ابن هشام.
- مطلع النور- عباس محمود العقاد.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبوالحسن النداوي.
- المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني.
- الفوائد – ابن القيم الجوزية.
- زاد المعاد – ابن القيم الجوزية.
- الرحيق المختوم- صفي الرحمن المباركفوري.
- فقه السيرة النبوية- د. محمد سعيد رمضان البوطي.
- ديوان حاج الماحي.

الفهرس